

الخيال العلمي من الدعاية للأيدولوجيا إلى تمهيد الطريق نحو وادي السيليكون

روايات تسقط في خدمة التكنولوجيا بعد تحررها من الأنظمة الشمولية



الخيال العلمي تخلص من الدكتاتوريات

قال فيه "منذ سبعة وعشرين عاما، نعترض، نحن المستقبلين، على فكرة الحرب المأففة للجمايلية، ونؤكد ما يلي: الحرب جميلة، لأنها، بفضل أفعلة الغازات ومكبرات الصوت المرعبة وقاذفات اللهب والدبابات الهجومية، تؤسس لسيادة الإنسان على الآلة الخاضعة. الحرب جميلة لأنها تحقق لأول مرة حلم إنسان ذي جسد معدني. الحرب جميلة لأنها تفرق حقلًا باهرا الأوركيد البراقة، أي الرشاشات. الحرب جميلة لأنها تجمع قذائف المدافع وتعليق الرماية وروائح التحلل لتجعل منها سيفونية. الحرب جميلة لأنها تخلق بنى معمارية جديدة هي البوابات الثقيلة وأسراب الطائرات ذات الأشكال الهندسية، والأخنة اللولبية المتصاعدة من القرى المحترقة".

وقد انطبقت روايات الخيال العلمي في إيطاليا، كما في ألمانيا، بهذا الخطاب الداعي إلى العنف، والمجد للحرب.

أما في الاتحاد السوفييتي، فإن الحلم الشيوعي لا يبدو كتتويج لصراع طبقي عنيف، بل كإنجاز مستقبلي قادم، حيث يتم الاحتفاء بصنع آلات جديدة مستقلة الإنسان السوفييتي من حال إلى حال، وتنقل بلاده من وضع إلى وضع، كما في رواية "هيريولويد المهندس غارين" لأكسي تولستوي، التي تروي براعة مهندس سوفييتي في صنع سلاح ذي إشعاع ليزري للسيطرة على العالم.

وقد رأى الكتاب السوفييت خلال أول مؤتمر يعقده اتحادهم سنة 1934 في هذا الجنس السري وسيلة تربوية مفيدة لتثنية الشيوعية على الملل التي تتبناها الماركسية اللينينية، وبذلك تحول إلى أدب بروباغندا، وصار كل شكل آخر من أدب الخيال العلمي مرفوضا ما لم يستجيب لتوجه الحزب الشيوعي الحاكم.

ومن ثم، كانت روايات الخيال العلمي السوفييتية تركز بانتظام على هزيمة الرأسمالية أو الفاشية أمام الشيوعيين التي يرفع لواءها علماء بلشفيون عباقر، فخلقت بذلك مخيالا عن الثورة الحمراء يدعمه التطور العلمي ويحرص المسؤولون على غرسه في نفوس الأجيال الجديدة. ولكن بشرط أن تدور الحكايات في مستقبل قريب جدا، لا يتجاوز خمس سنوات، بدعوى أن ستالين هو وحده الذي يتنبأ بالمستقبل.

عندما يعتنق الخيال العلمي أيديولوجيا السلطة، تصعب فكرة إبلائه دورا تربويا لدى الناشئة فكرة قارة، نجد ذلك في عهد حكومة فيشي زمن الاحتلال النازي، حيث صادر الألمان كل المجالات الفرنسية التي تنشر هذا الألب، ليفسحوا المجال لدورية عميلة هي "لوتيمير" (المجازف) يديرها أحد أنصار المارشال بيتان، وكانت تنشر قصصا مصورة موجهة إلى اليافعين تتحدث عن التحسين السليبي للنسل وتصفية الضعاف وإبادة اليهود، بهدف الحشد والتعبئة.

هذا التمشي بداه الألمان منذ جمهورية فيمار حين أثيرت المحاسن التربوية

والعلمية والأيدولوجية للخيال العلمي منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، وطرح مسألة تربية الشعب عن طريق الأدب، فاستغلنا عدة جمعيات مثل "رابطة عموم ألمانيا"، وهي جمعية سياسية عمومية عنصرية تعتبر أن الدم هو وحده ما يربط أبناء الأمة الألمانية، واستدعت من تراثها أساطير الشمال، لتبين أنها أصل العرق الآري.

وكان هاينريش هيمر، (أقوى رجال أدولف هتلر وأكثرهم شراسة، وكان قائدا لفرقة القوات الخاصة الألمانية والبوليس السري المعروف بالغيستابو، وأشرف بنفسه على عمليات إبادة المدنيين في معسكرات الموت الألمانية)، قد شجّع هذا التوجه، حيث طالب العلماء الألمان في جمعية البحث في التراث القديم وتدرسه بتحديد مكان أتلانتيس لاعتقاده بان أصلها هم أسلاف الآريين. وما أسرع ما استجاب بعض الكتاب لطلبه، وخاصة بول الفريد مولر الذي أصدر ما بين عامي 1933 و1936 سلسلة "سنان كوه، وريث أتلانتيس" يروي فيها كيف أن تكنولوجيا كائن فضائي سوف تقود الجنس الآري إلى مستقبل مجيد.

التطور المتوازي

طوال أكثر من قرن، برز اتجاهان: أحدهما كلاسيكي، هو رواية الخيال العلمي التقني كالاكتشافات والرحلات إلى الفضاء وفي الزمن، وصارت التقنية العلمية التي قد تقود الإنسانية إلى الدمار أو تغييرها إلى إنسانية خارقة، ربانية تقريبا، موضوعا لنسج حكايات حول حداثة مشكوك فيها. والثاني حديثي، بدأ يفرض نفسه منذ الستينات، حين أعاد الخيال ابتكار مجتمعات بشرية تعيش في مستقبل قريب أو فضاء مغاير، وغيرها.

خلال الستينات كان الوعي وإرادة الكتابة في الخيال العلمي هما السمة، وليس من باب التجريب والعرض. فقد كتب الدكتور مصطفى محمود رواية "المنكبوت" عام 1965 و"رجل تحت الصفر" عام 1967، ثم نهاد شريف في روايته "قاهر الزمان" عام 1974، و"سكان العالم الثاني" عام 1977، و"الشيء" عام 1989، ورواية "ابن النجوم" عام 1997.

كما كانت هناك العديد من الروايات بقلم صبري موسى وإيهاب الأزهرى وأميمة فخاقي وغيرهم من الأجيال التالية رؤوف وصفي، السيد نجم، صلاح معاطي.

ربما يمكن عرض مجمل الأفكار (أو أغلبها) التي تناولها كتاب الخيال العلمي في العربية، منها الأطلاق الطائرة وتأثيرها، علاج

سوف يلغي وجوده كل فكر استباقي.

أدب عربي محدود خائف من المستقبل

السيد نجم
كاتب مصري



بعض الأمراض الاجتماعية، فكرة التناسخ، نقد تأثير النظم السياسية على الأفراد، تطور الهندسة الوراثية، فكرة الخلود، فكرة الحياة الأفضل أو يوتوبيا المدينة الفاضلة، الحلم بحضارة مختلفة.

إلا أن هناك بعض الأعمال التي تتناول فكرة "السلام" والحلم بمجتمع عالمي آمن، أو هي فكرة "السلام المطلق". كما وضحت في رواية "سكان العالم الثاني" للكاتب نهاد شريف، وفيها يشير الكاتب إلى السلام المرهون بالقوة، وأنه يرى عدم إمكانية تحقيق السلام إلا بالقوة، وليس برغبة الأفراد والشعوب فقط ولا حتى الحكام.

في قصة قصيرة "رقم 4. يامرهم" للكاتب شريف، يبرر الكاتب تدمير "اتلانتس" الجزيرة التي هوت في المحيط، تلك التي سقطت وتلاشت لم يكن ذلك إلا بسبب الصراع الداخلي.

قدم المسعودي في كتابه "مروج الذهب ومعادن الجوهر"، وقص عن الإسكندر الذي سعى إلى اكتشاف قاع البحر.. حيث كانت المغامرات الغرائبية والمثيرة، مما يشي بخيال أدبي طموح، وإن لم يصنف هذا اللون من الكتابة بمسمى ما.

كما أن القزويني تحدث عن "عوج بن عنق" الذي جاء من كوكب آخر، وشرح قضية الحياة على الكواكب الأخرى، وأفاض عن تلك الحياة التي لا يمكن أن توصف إلا بقدرة الكاتب على الانفتاح الخيالي إلى آفاق غير معتادة في حينه.

مع ذلك عرض الباحثون إلى أن لأدب الخيال العلمي جذوره في التراث العربي. فقد تحدث الفارابي أيضا عن المدينة الفاضلة، وهي الفكرة التي تناولها توفيق الحكيم في عمله "في سنة مليون"، وصبري موسى في "السيد من حقل السباخ".. وقيل إنها سبقت سفر دانتي.

وغيرهم كثر في التراث العربي ممن سجلوا وأبحروا بخيالهم، فيما يمكن أن نطلق عليه الآن بشائر أدب الخيال العلمي العربي.

كان ميلاد أدب الخيال العلمي خلال العصر الحديث تعبيراً إنسانياً ولو من باب الخيال المحض حول الطبيعة وتجاوز موققاتها. فولد ذلك النمط الجديد للتعبير عن محاولة الإنسان استلهام العلم ومحاولة تجاوز الواقع لاستشراف المستقبل.

قدمت التكنولوجيا معها مظلوم تعريفا لرواية الخيال العلمي بما نصح "هي رواية مستقبلية تقوم على الحقيقة الثابتة حيناً أو المتخيلة عن جانب مجهول من الكون والحياة حيناً آخر، شخصيتها اسمية أو رقمية غير مكتملة الهيئة النفسية والجسدية، تنقل زمان الخطاب الروائي - المسرد في الغالب - إلى زمان مستقبلي أو استرجاعي متوهم، وإلى مكان خيالي، أحداثها مشوقة ومثيرة تدفع إلى التفكير في نتائج هذا الخيال المقتن والموظف، فتقدم حلولاً مستقبلية يجب أن تكون عليه في ظل التقدم العلمي المتسارع، كذلك تقدم محاذير لنتائج تلك النظريات العلمية إذا أسوء النتائج، عنصراها العلم والأدب".

خلال العصر الحديث تعبيراً إنسانياً ولو من باب الخيال المحض حول الطبيعة وتجاوز موققاتها. فولد ذلك النمط الجديد للتعبير عن محاولة الإنسان استلهام العلم ومحاولة تجاوز الواقع لاستشراف المستقبل.

قدمت التكنولوجيا معها مظلوم تعريفا لرواية الخيال العلمي بما نصح "هي رواية مستقبلية تقوم على الحقيقة الثابتة حيناً أو المتخيلة عن جانب مجهول من الكون والحياة حيناً آخر، شخصيتها اسمية أو رقمية غير مكتملة الهيئة النفسية والجسدية، تنقل زمان الخطاب الروائي - المسرد في الغالب - إلى زمان مستقبلي أو استرجاعي متوهم، وإلى مكان خيالي، أحداثها مشوقة ومثيرة تدفع إلى التفكير في نتائج هذا الخيال المقتن والموظف، فتقدم حلولاً مستقبلية يجب أن تكون عليه في ظل التقدم العلمي المتسارع، كذلك تقدم محاذير لنتائج تلك النظريات العلمية إذا أسوء النتائج، عنصراها العلم والأدب".

بدأت الرواية العلمية في العالم العربي خلال فترة الستينات من القرن الماضي. وهذا التاريخ يتجاهل بعض المحاولات غير المتعمدة لبعض الكتاب من قبل. كما عند الكاتب توفيق الحكيم في بعض قصصه القصيرة والمسرحية، وكذلك يوسف عز الدين عيسى في مجموعة من التمثيليات الإذاعية.. وغيرها.

خلال الستينات كان الوعي وإرادة الكتابة في الخيال العلمي هما السمة، وليس من باب التجريب والعرض. فقد كتب الدكتور مصطفى محمود رواية "المنكبوت" عام 1965 و"رجل تحت الصفر" عام 1967، ثم نهاد شريف في روايته "قاهر الزمان" عام 1974، و"سكان العالم الثاني" عام 1977، و"الشيء" عام 1989، ورواية "ابن النجوم" عام 1997.

كما كانت هناك العديد من الروايات بقلم صبري موسى وإيهاب الأزهرى وأميمة فخاقي وغيرهم من الأجيال التالية رؤوف وصفي، السيد نجم، صلاح معاطي.

ربما يمكن عرض مجمل الأفكار (أو أغلبها) التي تناولها كتاب الخيال العلمي في العربية، منها الأطلاق الطائرة وتأثيرها، علاج

سوف يلغي وجوده كل فكر استباقي.

غالبا ما يُنظر إلى روايات الخيال العلمي كوسيلة للتحذير من المخاطر التي تتهدد المجتمعات. فالروايات الاستباقية تضخم الانحرافات التي تترتب بتلك المجتمعات وتسهب في تخيل أحداث مريعة كسي تدعو قارئها إلى شحذ الفكر النقدي والتنبه إلى عواقب سكوته عن بعض الظواهر، أما الطوباويات فترسم أطر عالم مثالي يطيب فيه العيش. ولكن ماذا يحدث لو تقلب الأشياء وتتحول الديستوبيا إلى يوتوبيا استبدادية، ويصبح حلم المدينة الفاضلة سجونا ومعسكرات تعذيب وقتل؟

توتاليتاري في بلدان كالمانيا النازية وإيطاليا الفاشية والاتحاد السوفييتي الشيوعي.

ففي ألمانيا، كان الحقل الأدبي في مطلع القرن الماضي أرضية سانحة للأيدولوجيا النازية، التي ستنصر في العشرينات اللاحقة وترفع هتلر إلى سدة الحكم، إذ ساهمت حركة الأدب الشعبي "فولكيش" في ظهور إنتاج ثقافي ذي منحنى عنصري قومي، ترافق مع خطاب عدواني غطى على الحلم السلمي بمجتمع معولم تتوصل خلاله "عصبة الأمم" إلى وضع حد للحروب وتوحيد كافة البلدان على كلمة سواء.

فقد كان عدد من كتاب روايات الخيال العلمي في تلك الفترة يرى في الحرب وسيلة منطقية وطبيعية لفرض الهيمنة وكفؤا للمشاكل، مثلما يرى أن الأمة لا يمكن أن تضمن خلاصها إلا باستعمال هذه الظاهرة، ظاهرة الحرب.

روايات الخيال العلمي كانت أداة للدكتاتورية لخلق خطاب داع إلى العنف وممجد للحرب واليوم صارت مغامرة جديدة

وقد استندوا في ذلك إلى الإرث النيتشوي عن الإنسان الأسمى Übermensch، الذي يتماهى كثيرا مع المفهوم النازي للعرق الآري، وراوا أن لجنس الأسياد الحق في سحق الآخرين، مثلما استندوا إلى مقولات أوسفالد شبنغلر في كتابه "سقوط الحضارة الغربية"، الذي شجّع على ظهور يوتوبيات وديستوبيات تتخيل سقوط الحضارة الغربية حيناً، ونجاتها حيناً آخر عبر حروب عرقية، كما فعل إرنست أوتو مونتانوس في روايته "خلاص الغرب"، وكان قد صور فيها تشكيل رابطة جرمانية متماسكة، وسحق ألمانيا لفرنسا خلال حرب عالمية، لما للحرب من فضائل تطهير حسب قوله.

ولهم يكن التحمس للحرب خاصا بالألمان وحدهم، ففي إيطاليا، كان فيليبو توماسو مارينيتي، مؤسس الحركة المستقبلية، من أشد الداعين إلى حداثة عنيفة، وكان لا يني يتحدث عن جمالية العنف، بل إنه نشر عام 1935 مانيفستو بمناسبة حملة موسوليني على الحبشة،

أبو بكر العيادي
كاتب تونسي

الخيال العلمي هو أدب الممكن والمحتمل، أي أنه يحاول أن يستبق عصره ويستشرف المستقبل ليصور ما يمكن أن يحدث انطلاقاً من معطيات وضع راهن، ولكنه يمكن أن يقلب تحت الأنظمة الاستبدادية إلى وسيلة دفاعية للأيدولوجيا التي تقوم عليها، فتحوله إلى نوع من الخيال العلمي التوتاليتاري. ظهر هذا الجنس في بداية القرن التاسع عشر في خمسة بلدان هي بريطانيا وفرنسا وألمانيا وروسيا والولايات المتحدة، بفضل جهود متفرقة لبعض كتاب أشهرهم إدغر آلان بو، وجول فيرن، وأرثر كونان دويل، وكورد لاسفيتز، وهيربرت جورج ويلز، وقسطنطين تسيلوكوفسكي، وإدغر رايس بوروز.

ولكن كون البريطانيون حول ويلز مدرسة "الرواية العلمية"، فإن الفرنسي موريس رونار اختار لها "العجيب العلمي"، ولم يتحدد المصطلح إلا بعد أن بعث الناشر الأمريكي هوغو غرنسباك صنفا تجارياً في أواخر العشرينات أطلق عليه اسم scientific fiction ثم science fiction قبل أن يستقر على science fiction - أي الخيال العلمي.

وكان لانتشار الثقافة الشعبية الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية، واكتشاف الترجمات الأولى للروسي إسحاق أسيموف، وظهور روايات لافتة للأميركيين ألفريد فان فوغت، وراي برادبوري، دور في إقرار ذلك المصطلح على نطاق عالمي، ولكنه لم يلق من النقاد والأدباء سوى النكران والاحتقار، ولكن لم يمنعه ذلك من أن يصبح ظاهرة ثقافية واسعة، لكونه يعكس رغبة في استكشاف فرضيات تستهوي بالعلم وتحاول أن تستشرف المستقبل وتنفذ إلى ما لم يقع البت فيه بعد.

مدح للحرب

كان من الطبيعي أن تغتنم الأنظمة الشمولية هذا الأدب الشعبي لتبث من خلاله دعايتها، تستوي في ذلك الأنظمة التي تدعي التقدم والإشراكية، والأنظمة التي تؤمن بالتفوق العرقي، بحجة أن الخيال العلمي إن كان أدب الممكن، فإنه يمكن أن ينسجم مع أهدافها القربية والبعيدة، ما أوجد أدب خيال علمي

في العالم العربي مازال أدب الخيال العلمي في مراحله الأولى وكَم المنتج منه محدود ويحتاج إلى تطوير

لكن مخلوقات كوكب المريخ يعتقدون بفناء كوكب الأرض كله وليس جزء منه (اتلانتس) إذا قامت حرب نووية وإذا زاد مخزون السلاح.

أما رواية "السيد من حقل السباخ"، فالكاتب موسى يعبر عن الخوف من السلام برواية داخلية أي داخل مفهوم السلام، فيقول السيد "هو مو" "أيها السادة إنكم تقتلون الأحاسيس الخلاقة في المواطنين، إنكم تقتلون الحرية الشخصية داخل فكرة الانضباط. وتوقعون الخيال الإنساني عن الانطلاق الجامح الذي تولد فيه العبقورية الخلاقة".

ومسرحية "عائلة السيد رقم 1" للكاتب صلاح معاطي، فيها تخيل الكاتب حياة جديدة للإنسان الآلي حتى وصل إلى مستوى عال من الأداء، بل من القيادة الإدارية بالمؤسسات الاقتصادية..

أكثر ما تكشفه عن موضوع الحرب والسلام، والخوف من المستقبل هي من الموضوعات التي شغلت كتاب أدب الخيال العلمي كثيراً.

وعلى جانب آخر، تشير إحصاءات القراءة في الأدب الغربي/ الأوروبي الآن إلى أن منتج الخيال العلمي في الرواية يمثل أكثر من 30 في المئة من الكم الإجمالي للرواية. فإذا ما أضفنا تلك الروايات التي تتناول الفورم أو الشكل المثير "الأكشن"، ثم الشكل البوليسي، يمكن بالتالي أن نستنتج غلبة أشكال المنتج والمعرض من الروايات الإنسانية بالمعنى والشكل والتناول المتعارف عليه، وهو الذي يسعى إلى أعماق النفس البشرية والعلاقات الإنسانية بين الفرد والجماعة. وهو ما جعل البعض يعلن عن تخوفه من تلك الحقيقة، وبدأت تعلق بعض الأصوات لتعلن عن ضرورة مراعاة الجوانب الإنسانية والعلاقات الاجتماعية في المجتمع.

أما في العالم العربي فمزال أدب الخيال العلمي في مراحله الأولى، وكَم المنتج منه محدود، ولا يمثل أي مشكلة، بل ندعو إلى الخوض فيه للأخذ من ميزاته التي هي مزيج من الانفراج الخيالي، والمزج بين الحقائق العلمية والحياة اليومية المتخيلة.

